حريق القرية

للأستاذ السيد حسن قرون

كانت الندوة عامرة بأصحاب الآراء الحرة ، وكان الجدال شديداً حول تحديد النسل ، وضيق وادى النيل عن تهيئة العيش الكريم لسكانه حين قص علينا أحد الأصدقاء هذه القصة التى أقسم أنها وقعت فى إحدى قرى الصعيد ، ولا يزال كثيرون جدا من الفلاحين يذكرونها ولا ينسونها ؛ لغرابتها ولما تركت فى النفوس من أثر أليم . قال :

كنت فيما مضى أحب القرية حبا يجذبنى إليها الرحيل إليها من حين إلى حين ، وكنت أحب مجالسة الشيوخ ولا سيما الشيخ خواجه الذى عرفت فيه الطيبة والفكاهة ، وكان يطرفنى بقصص مضحكة ، وكنت أصغى إليه لبساطته لا ، وإن كانت قصصه كلها تدور حول الغنى والفقر ، والشجاعة والكرم إلا أننى كنت أجد فيها ما يروقنى ويشوقنى .

وذات ليلة جلست معه ، وانتظرت منه حديثا أو قصة أو خبرا من أخبار القرية ، ولكنه لم يفعل ، فقلت فى نفسى : الشيخ خواجة ليس من قصصه ، وآن له أن يستريح ، وعلى حين غفلة علا صوت استغاثة وصراخ فى ناحية من نواحى القرية ، فهب الناس مذعورين متجهين نحو الصوت ، وهممت بالقيام لأرى ما حدث ولكنه تشبث بى قائلا فى سخرية : الأمر لا يعدو أن يكون الولد (مهنى) قد أتاه الصرع ، وسيأتيك بالأخبار من لم تزود ، وسكت قليلا ، ثم رجع بعض الذين خفوا لإغاثة المستغيث ، وسمعتهم يتندرون ويضحكون ، لأن مهنى حاله معروفة . فلما سمع حديثهم صاح : ويله يقصر أجله ، ربنا يرحمنا منه ومصيبته على البلد هذا الولد ، فقلت له : ما هذا يا شيخ خواجة ، أتدعو على الناس بالموت ؟

ونظر إلى نظرة طويلة تبينتها على ضوء الدبابة الخافت ، وأردت أن أداعبه ، فقلت : كأن بينك وبين مهنى عداوة . وكأنى بهذا الكلام لمست منه جانبا موجعا ، فصاح

وانطلق يروى قصة العداوة بكل ما يملك من أدوات البيان ، يتحدث بلسانه وعينيه ويديه ، ويهز رأسه ، ويقف أحيانا مما جعلني أعطيه سمعي ونظري وقلبي أيضا ، وابتدأ حديثه هكذا :

عداوتي معه من قبل أن تلده أمه :

لا تعترض : نعم عداوتي معه من قبل أن يرى الدنيا ، فقد كان مولده نذير شر لي ولأهلي ، وفقدت أمي وشقيق في سبيله . لقد كانت أمه شيطانة خربت الديار ، ويتمت الأطفال ، وروعت الناس من أجل سواد عينيه .

لقد شهدت ليلة زواج أبيه بأمه ، كانت ليلة عظيمة ، وكان أبوه — الله يرحمه — رجلا صالحا كريما شجاعا انتخبناه شيخا لحصننا ، وكانت زوجه الشئومة فتاة سمراء جميلة ، ويقول أهلها إنها مؤدبة ! وتدبر أحسن بيت ، وكان شيخ البلد فرحا بها يتحدث عنها أمامنا ولا يرى في ذلك عيبا ، وكنا نجامله فلا نقاطعه ، وحين يمضي نقول عنه إنه عظيم في كل شيء إلا ذكر امرأته .

ولكن هذه السمراء المحبوبة لم يرزقها الله ولدا يسر شيخ البلد ، وشعرت المرأة بحرج مركزها وشعرت بعداوة الأيام لها ، وأحست بزعزعة حبائبها عند الشيخ ، وكلما كرت الأيام ازدادت أرقا وقلقا ، حتى نحل جسمها ، وغاض ماء الجمال من وجهها ، وملت العمل في بيتها وكرهت الدنيا . .

كانت في أول أمرها محجوبة لا يراها إنسان ، ولكنها على مر الأيام أصبحت لا تحفل بالناس ، وتراها في شجار مع النساء . وكان يغيظها ويهيجها أن تسمع من آرائها الدعاء لها بالولد الصالح ، والذرية النافعة ، وتظن — وبعض الظن إثم — أنهن يعنين بها ، ويضحكن منها ، وتمنت لو أن الله باعد بينها وبينهن ، وحفظها من مكرهن ، ولكن من أين لها هذا والبيت مزدحم بقريبات زوجها وقريباتها ، فكانت في معارك دامية معهن ، حتى جعلت البيت جحيما ، والشيخ راض بما قسم الله له .

والرجل في القرية كما تعلم لا يهمه من الزواج إلا « الخلفة » ، وقبل أن تمضي شهور على زواجه يفكر في الوارث ولا يرى المرأة إلا معملا للتفريخ ، فإن خانها الحظ ، ولم تنجب طلقها غير آسف ولا نادم ، أو تزوج أخرى لهذا الغرض . وأحد أصدقاء شيخ البلد يهونه بالبناء على غيرها ، والرجل يتمنع أملا في الولد منها .

وتسمع أم مهنى همسا يدور حولها ، فتضربها الأوهام ، وتعصف بها الأحزان ، وتبكي ليلها ونهارها ، وكثيرا ما تخلو إلى نفسها تتحدث معها حديثا فيه من التحبب

أكثر مما فيه من التعبير ، ولولا فرحة الشامتين لأعلنت زوجها بحقه فى الزواج عليها ، ولكنها ترتد مجفلة عند هذا الخاطر الأسود .

وأخيرا لجأت إلى ما تلجأ إليه نساء القرية ، فزارت قبور الصالحين تخطيها سبع مرات من جهة إلى أخرى وتذهب إلى جبل اشتهر بالكرامة تتدحرج عليه ، وتعالجها الداية علاجا عتيقا ، وتضرب الرمل ، وتقرأ الكف ، وتقيم حفلات الزار ، وتعانى من كل هذا ألما مبرحا ، وتعبا مضنيا ، وأمراضا كثارا ولا تفيد من وراء ذلك شيئا ، وضاقت عليها الأرض بما رحبت ، وتمنت الموت لترتاح من الأشجان والأسقام ، ورانت عليها كآبة لا تستطيع دفعها ولو تكلفت ؛ فلا تراها تبسم لأحد ، ولا تهش لشئ . وكانت بجوارها امرأة — هى أمها — لم تعرف دواءها ، وإن عرفت داءها ، وكم لفهما الليل بردائه الغداق ، وباتتا تعدان النجوم ، وترقبان الصبح ، والدموع تسيل من عيونهما منهمرة. ولكن الإنسان لا ييأس ما دام يحس بالأمل ، ويشعر بالحياة ، وانتظرت الفرج ...

فقلت : أذهبت إلى الطبيب ؟ فزم الشيخ شفتيه ، ثم أرخاها وقد تنفس الصعداء ، واضطجع إلى الوراء ، وأخرج علبة الدخان ، وصنع دخينة أشعلها وألقى عود الثقاب على الأرض قائلا والدخان يتصاعد مع الهواء فى تراقص : «أى طبيب ؟ صدقنى أنى لا أحب الأطباء ولا الطب ولو جلب الشفاء ، وعلى فكرة لم يكن الطب معروفا على عهدنا ، ولو كان معروفا لنجوت أنا من النحس ومن مصائب أم مهنى ، لقد كان طبيبها جبارا هبط من السماء فجأة ليشفيها ، ويبتلينا»

فقلت كما يقول كتاب كليلة ودمنة وكيف كان ذلك ؟ ولم يقل زعموا ، ولو عرفها ما قالها ، لأنه يحكى قصة شاهدها وذاق مرارها ، ولا تزال آثارها الوخيمة تلاحقه وتضنيه . ولكنه قال وهو يلهث من شدة الغيظ

«لا أدرى كيف ظهر هذا الرجل ، إنه ساحر من بلاد الدكرور يسميه الشيخ الدكرورى ، أعرفه من بعيد ، أعرفه شيطانا بقلب الشياطين ، يستخدمهم ، ويوحى إليهم ، وفوق ذلك فهو ساحر قدير ، ما أن سمعت به أم مهنى حتى ركبها ألف عفريت ، وانطلقت إليه تشوى كأنه سيعطيها الولد بمجرد السلام عليه.. مسكينة تستحق الرثاء ، وإن كنت أبغضها من قلبى ، وأعاديها إلى يوم الدين . ماذا تصنع لقد عرف منه أنه يشفى المرضى ، ويطرد

الجن الخبيث ، ويصلح بين المرء وزوجه ، وهو يستطيع — لقدرته — أن يكتب كلمة على اليد اليسرى فيلمحها الإنسان فيراها على اليد اليمنى ، وله فى علاج العقيم شهرة واسعة .

لقد أشرقت الدنيا فى حياتها على حين غفلة ، وخيل إليها أن كلمة منه تترك فى أحشائها جنينا يعيد إليها قلب زوجها قبل أن يتحول ، ويعيد إليها جمالها وشبابها ، وسيذهب عنها المرض إلى غير رجعة ، وفكرت فى الولد المأمول ، فانجابت عنها سحب الماضى ، وبدا لها نجلها يسعى بين يديها ويخرج صباحا إلى مكتب القرية ، وبعد الظهر يسوق البقر والجاموس إلى أحواض الماء ، ويذهب مع أبيه إلى الحقل ، ويقدم إليها بيده الكريمة باكورة القمح ، ولها أن تباهى قرابها بكل ذلك

جالت كل هذه الخواطر فى نفس تلك المرأة المشئومة ، فانتفضت من مكانها فتاة مسلية قوية ، ناضرة فتية ، ودفعت الباب بقوة ، وهرولت إلى أمها فى ابتسامة الزهرة الأريجة تهمس فى أذنها أنه قد حضر الشيخ الذكورى ، وارتعشت يد المجنونة وهى تضمها على فمها المفتوح ، وصاحت : أحقا حضر ؟ لقد بسمت لك الدنيا يابنيتى ، وآن لنا أن نستريح ، اكتمى أمرك عن جميع الناس حتى زوجك وتم الانصال بين المرأتين والرجل ، وأخذ الساحر ييسر الأمور ويسرها ، ويبعدها ويقربها ويجعلها رابع المستحيلات ، وأقرب من حبل الوريد والمرأتان تزيدان له فى الأجر ، وجعلت له البشرى أيضا

أتدرى ما العلاج ؟

لا حول ولا قوة إلا بالله ما رأيت علاجا مثله فى حياتى ، ولا سمع عبرى بذلك العلاج المدمر ، مصيبة والله . العلاج يا سيدى : إحراق القرية وقت صلاة الجمعة فى النصف الأول من الشهر العربى . ومن ذلك اليوم أخذت أم مهنى تعمل على تنفيذ العلاج ، وتعد العدة وتكتم سرها ، ودبرت الخطة ، وأقدمت على فعلتها من غير وازع من ضمير ، ولا زاجر من دين

واضطرب جسم الشيخ خواجة عند ذلك ، وجحظت عيناه ، وتقلصت شفتاه ، وأشار بيديه كليتيهما ، وصاح فى عصبيته : « الله يلعنها ! لقد اختارت يوما عاصفا ، وقد كان العسيف غائظا بصهير الرؤوس ، وقد أقبل الناس روافد إلى المساجد حتى إذا خلت الدور من الرجال وسكنت الطرق من الحركة خرجت المجرمة تسعى ، وكان منزله شمال القرية ، ومنزلها خارجها وأشعلت النار فيه وولت هاربة

لم تلبث النار مرة واحدة ، وامتد

الصراخ إلى أذنى عنيفا مخيفا وأنا فى الركعة الأخيرة ودارت بى الأرض الفضاء . وانفلت من صلاتى، فرأيت وياشر مارأيت.. لقد صار منزلى شعلة من نار ، وهبت النيران على المنازل المجاورة تؤزها أزا ، واكتست النخيل ثيابا قانية، ولعبت الريح العاتية لعبتها ، فتطاير الشرر ، واختلط صوت الرجال بعويل النساء وصراخ الأطفال ، ففقدت وعى ، فرأيت الناس أشباحا تذهب وتجئ فى أيديهم الجرار وأوعية الماء ، والماء لا يكفى ، ولم نكن نعرف رجال الحريق

وتنقلت النار من الشمال إلى الجنوب فى سعار وشهم ، وخلفت فى وسط القرية دائرة حمراء. وانجلت الكارثة بعد أيام عصيبة عن خسائر فى الأرواح والأموال ، وخرجت أنا منها صفر اليدين لا أملك زرعا ولا ضرعا . وفقدت شقيقى وبعض أقاربى .

أفتريد منى أن أحنو على هذا المنزوع المشئوم ؟ الله يرحمنا منه ! فقلت : أحملت به بعد هذه الحادثة ؟ فأجابنى وهو يمضغ الألفاظ مضغا عنيفا : نعم ولبئها ماتت فى حملها به !

قال ذلك الصديق : وتركته وأويت إلى فراشى ، فوقعت فى دهمة من الأحلام المزعجة ما أنقذنى منها إلا صياح الديك وصوت المؤذن .

السيد حسن فريد

أعلام القصة الروسية

تولتسوى

فذة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قدمته وحققته

للأستاذ محمود الخفيف

كتاب فى نيف وأربعمائة صفحة من القطع الكبير محلى بالصور

أوفى دراسة فى العربية لحياة هذا الفنان العظيم

ثمنه ٤٠ قرشا عدا أجرة البريد